بسم الله الرحمن الرحيم

حضارة الإسلام

مجلة فكرية جامعة

جمادى الآخرة	العدد الرابع	آب ـ ايلول
١٣٨٩	السنة العاشرة	١٩٦٩

أحشفاً وسوء كيلة

هذا مثَل تضربه العرب لمن يجمع بين خصلتين مكروهتين ، فمثَل من يكون كذلك مثَل من لا يكتفي ببيع أردأ أنواع التمر ـ وهو الحشف ـ وإنما يجمع الى ذلك سوء الكيل أيضاً . والذي أعنيه كائن وراء هذا الذي أقول ؛ فأنت واجد إذا انعمت النظر أن هناك صنفين من البشر تبدو في سلوكهم صلة القربى مع هذا المثل الواضح المستبين .

أما الصنف الأول : فهو أولئك الناس الذين يقعدهم جهلهم أو عجزهم عن تحمّل تبعات الإسلام في صفائه ودعوته إلى استقامة العمل والوقوف عند حدود الله عز وجل .. فيحمّلون الإسلام نفسه حصيلة جهلهم أو عجزهم عن الاستقامة على الطريق التي قد تكون من الوعورة بحيث يهابها ضعاف النفوس ، ويرهبها

الذين يثقلهم حب الشهوات والعافية والطمع في العاجلة والغرض القريب . فبدلاً من التنقيب عن المرض الذي به قعدوا عن مسايرة ركب الإسلام ، والأمانة في التزام حدوده ، تراهم ينعون على الإسلام أنه غير صالح للحياة ، أو أنه لا يساير ركب التطور .. أو .. أو .. وقد يذهلك التعداد بشعبه الشيطانية وألوانه المخزية .

ولو أن هؤلاء النفر من الناس استطاعوا أن يتحرروا ـ ولو بعض الشيء ـ من عبوديتهم لغير الله جلّ وعز ، وتزوّدوا بشيء من المعرفة ، وأضاءت نفوسهم بقبس من نور التقوى والهداية ، لسَلِم لهم وضوح الرؤية وابصروا الأمور على حقيقتها ، وأدركوا أن العلة لا تكمن في هذا الدين الذي أكمله الله ، واتم به النعمة، ورضيه لعباده أجمعين . وانما تكمن في أنفسهم هم ، ولأيقنوا أنهم هم موطن العلة التي باضت وفرّخت في عقولهم وحوّلت طاقاتهم الى نزوات وشهوات .

فهؤلاء الصنف من البشر بدل أن يستأنفوا الطريق لإصلاح الخطأ يجمعون إلى جهلهم أو عجزهم ، اتهام الإسلام ، تبرئة لنفوسهم الجاهلة العاجزة المريضة وتسويغاً لما يكون من انحرافهم عن جادة الصواب ، والعياذُ بالذي قال في كتابه ـ وهو أصدق القائلين ـ وما من دابّة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلممستقرها ومستودعها كلّ في كتاب مبين)) .

أما الصنف الثاني . فهو أولئك الذين يمثلون ظاهرة التخلف عن طريق الاسلام في دعوته الى العلم والمعرفة ، والانهزامَ النفسي أمام انتصارات أولئك الذين يمسكون اليوم بزمام الحضارة الحديثة وقد جمعوا العلوم المادية من اطرافها ، وباتوا يطالعون العالم كلّ يوم بجديد .

فهؤلاء لا يحملون جهلهم وانهزامهم ويسكتون ، بل يحاولون أن يتمسّحوا باذيال الإسلام فيفترون عليه الكذب بما يكون من قالتهم : الدّين لا يرضى بالصعود إلى القمر مثلا ، وهذا أمر يجوز ، وذاك في نظر الإسلام لا يجوز .. الى آخر ما ترى وتسمع من الجود بالفتاوى وطرح الأحكام .

ويا عجباً لأمر الجهل ماذا يصنع بصاحبه ، يورده موارد الهلكة ، ويسلكه في قطيع التائهين ... ولو أن الأمر في تصرف الجاهل يقتصر على دائرة شخصية

ضيقة ، لهان الخطب ، ونفعت الحيلة ، ولكن الأمر يتعدى الى دائرة أوسع وأشمل هي دائرة الجماعة ، والطامة الكبرى في أولئك الذين يلصقون بالدين زوراً وبهتاناً ما ليس منه ، ويفترون عليه ما هو منه براء ، الدين الذي قام عليه كيان الأمة وغذّى تاريخها الحضاري ـ بل تاريخ الإنسانية ـ عبر قرون وقرون، هذا الدين .. يحاول بعض الناس أن يكسوه لباساً نسيجه جهلهم وبلاهتهم ليبنوا للجهالة صرحها الذي يضمن استمرارهم على ما هم عليه ، وليسوّغوا ذلك الانحراف الذي يتسربلونه ، حين باتت العودة إلى مفهومات الإسلام الصحيحة، والتزود بشيء من العلم والمعرفة من الأمور التي يتجافون عنها ، وكأنما ضرب بينهم وبينها بسور لا يَقضى عليه حتى يلفظوا أنفاسهم فيستريحوا ويريحوا ، وتبارك الذي أنزل فيما أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم « إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » .

وأود ـ بجانب ذلك ـ أن أؤكد على التنبه إلى الإنهزام النفسي الـذي اشرت إليه من قريب ، لأنه أمر في غاية الخطورة على حياة الأمة حين ننظر الى الأمد البعيد ، ونحاول أن نضع القضية في إطارها الطبيعي .

ولعل ذلك كله هو السر الذي يكمن وراء الغثاء الذي تلقيه بعض الأفواه باسم الدين ، وتلقيه بعض الحناجر على منابر المسلمين في موضوعات تعرض ـ فيما تعرض ـ لأحدث مرحلة علمية وصل اليها فكر هذا الإنسان المخلوق ، حين استطاع بعد أن زحف مئات ومئات الألوف من السنين أن يصعد إلى القمر الذي قدّره الله منازل ، والذي تفصله عن كوكبنا الأرضي مسافة تبلغ اربعمائة كيلو متر أو تزيد . والذي يحزُ في النفس ، أن هذا الغثاء يتمثل في قول بعضهم : الصعود إلى القمر حرام ، وقول آخرين من قبل : هذا أمر لا يمكن أن يكون ، وأمر ثالث بعد هذا كله ، هو ما أصاب بعض النفوس الجاهلة أو المريضة من تعب حيال القضية الإيمانية الكبرى في وجود الله وقدرته سبحانه وتعالى ، ناسين أنه عز وجل هو القاهر فوق عباده وانه بكل شيء محيط وأنه هـو الذي أودع في الكون ما أودع من خصائص وسخر ذلك للإنسان .

الا إن القول بهذا كله ، أو بشيء منه جهل بالعلم والإسلام معاً ، ولو ذكرنا ان الإسلام بدأ رسالته على الأرض بقوله تعالى : اقرأ ، وأن الآيات التي تكـرم العلم وتحث عليه بلغت الحد الوافر في كتاب الله تعالى ، وان رسول الله كان من وظيفته في هداية الناس كونه يعلمهم الكتاب والحكمة ويخرجهم من الظلمات الى النور ، وأن في أحاديثه عليه الصلاة والسلام الكثير الكثير من النصوص التي تكرم العلم والعلماء ، وأن ما وراء فرض العين من العلوم هو فرض الكفاية ويشمل

كثيراً من العلوم التجريبية التي نلمس آثارها اليوم عند اعدائنا الذين امسكوا بزمام الحضارة الحديثة بلا اخلاق وسخروا شعوب العالم لأهوائهم وسلطانهم وما يبتغون.

وأن القرآن جعل طريقاً واسعة رحبة من طرق الايمان بالله التدبر والتفكر في السماوات والأرض والنظر فيهما ، وفي هذا الخلق العجيب الذي تنزه عن التفاوت والعيب ، كما أراد له الله أن يكون .. نعم لو ذكرنا ذلك ــ واليسير منه يكفي ــ لما كان هذا الذي نشكو منه اليوم .

فياليت شعري كيف يمكن ان يكون النظر إن لم يكن هنالك علم ؟ وكيف يمكن أن يكون هناك تدبر إن لم يكن هنالك معرفة تساعد على هذا التدبر ؟ ان القرآن دلّ العربي في الماضي على ما يمكن ان يدركه كما نرى مثلاً في قوله تعالى جاعلاً النظر طريق الايمان : ((أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت)) باعتبار ان الناقة لها ما لها من أثر في حياة العربي ، في مطعمه ومشربه وسفره وراحته وما الى ذلك، وظلّت أمور كثيرة وكثيرة لا يظهر اعجاز القرآن فيها إلا العلم الذي يصل اليه العقل البشري مرحلة بعد مرحلة .

فأنى لنا أن نقول : هذا يجوز وهذا لا يجوز مع ان التدبّر في آلاء الله مرتبط بالايمان أتم الارتباط . والمفروض بالمؤمن العاقل أن يزيد ايمانه ويقوى يقينه ، بمثل هذا .. إن اكتشافنا لجانب صغير صغير من مخلوقات الله تبارك وتعالى لا يحملنا على الشك في وجود الله ، وانما يزيد يقيننا بوجوده وعظمته سبحانه والاعتراف بأن هذا النظام في المجموعة الشمسية وغيرها لا يمكن أن يصدر إلا عن خالق عليم حكيم مبدع له الخلق والأمر .

الا إن الإسلام لا يهاب العلم لأنه دعا بحرارة اليه ، ولا يرهب ما يصل إليه العقل البشري من اكتشاف لكوكب أو كواكب من هذا الخلق البديع الذى لا ترى فيه من تفاوت ، لأنه جعل النظر والتدبر والتفكر طريق الإيمان ــ والحمد لله ــ وهذه خاصية تميز بها الإسلام .

وأكثر من هذا : لقد كان المفروض أن تصل امتنا الى هذه المرحلة قبل هؤلاء الناس بعدة قرون أن لو ظللنا مع الإسلام ، وسلم لنا خطنا البياني في صعود صاعد بما يشرق عليه من ضياء هذا الدين الذي تربى في ظله آلاف الرجال الذين كان يتقربون الى الله تعالى بما يخطون للأمة من معالم المعرفة . وعلى ما ضاع من تراثنا على أيدي التتار والصليبيين ، والفتن والحروب ما تزال الآثار في المخطوط والمطبوع شاهدة على هذا الذي نقول ، ولن تعدم الدنيا منصفاً ــ ولو من الأعداء ــ يعترف بذلك .

فبدلاً من الانهزام ، والتوكؤ الجاهل على الدين ، وتلبيسه الثوب المفترى ، لا بد من الشعور بمزيد من المسؤولية ، والمحاولة الجادة لاستئناف الطريق الواعية التي تعطي كل شيء قدره في ظل الإسلام ، ولن ترضى الأمة أن يكون

فينا أناس يحاولون باسم الدين أن يضمنوا الاستمرار على حساب جهل الأمة بدينها ، وبناء قصور من الأوهام والخيالات والخرافات باسم الدين ، والدينُ من هذا كله براء ،

إن التاريخ ما يزال ينعي على أولئك الذين كانوا ينتسبون الى غير الإسلام في أوروبا ، ويحاولون أن يحاربوا العلم باسم الدين لأن بقاءهم فيما هم عليه بسلطانهم وسيطرتهم على الناس مرهون بان يظل هؤلاء الناس يغطون في سبات عميق من الجهل والخرافة والانحراف . كان ذلك يوم كانت يد الاسلام العالمة العارفة الحكيمة القوية ، في مشرق عالمنا الكبير ومغربه تشق جيوب الظلام في العالم كله .

مرة ثانية نقول لهؤلاء وأولئك : أحشفاً وسوء كيلة !! ألا لا يجمعنّ الجاهل الى جهله بالإسلام والعاجز إلى عجزه عن متابعة طريق الإسلام إلقاء التبعة على الإسلام . ألا لا يَضمنّ أولئك الجهلة والمنهزمون في أعماقهم إلى هذا البلاء ، أن يستخدموا الافتراء وسيلة لاستمرار وجودهم وكيانهم ، والاسلام دين العلم والمعرفة والنور .

ألا وليعلم الرواد الذين أكرمهم الله بوافر من الايمان والهدى ، أن جانباً كبيراً من التوعية يقع على عواتقهم في مثل هذه الأمور ؛ فدعوة الاسلام كلّ لا يتجزأ ، وبناءٌ متكامل كما أراد الله له أن يكون .

ومعقد الأمانة في هذ الباب ، أن من المنكر الذي لا يمكن أن تقبله نفس مؤمن ، أن ينضم إلى بلاء هذه الأمة في ديارها وأرضها ، بلاءُ تأصيل الجهالة واعتبارها من الإسلام باسم الحفاظ على الدين وتقوى الله عز وجل ، ليكون للأعداء ما يريدون من بقاء الأمة في الوهدة التي هي عليها اليوم .
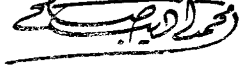
إنه لا بد أن تمسك الأمة بالزمام من جديد وذلك بموالاتها حقائق الاسلام في العلم والمعرفة ، والافادة بوعي وأمانة مما عند الآخرين ، وجعل العلم والمعرفة في طاعة الله وتحقيق رسالة الإنسان ، كيما يستأنف مسلم اليوم طريق مسلم الأمس ، فلا تنقطع الجسور بين مسلم الغد وبين الذين حملوا رسالة المعرفة – معتزين باسلامهم – إلى العالمين . وجلّ الذي قدّر فهدى ، وتبارك الذي علّم الإنسان ما لم يعلم ، وسبحان من أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم ((سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)) وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .